

أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني

واسهاماته العلمية بحواضر المغرب الإسلامي خلال ق8هـ/14م

بقلم: فافه بكوش¹

شهدت بلاد المغرب الإسلامي عموماً وتلمسان على وجه الخصوص، خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي حركة فكرية رائدة ونشاطاً ملحوظاً في المجال العلمي، حيث أخصب فيها الفكر وازدهرت بها الحياة العلمية، وقد تجلّى ذلك من خلال عدة ظواهر علمية متعددة منها انتشار معاهد التدريس من مساجد ومدارس التي كانت حافلة بطلاب العلم، وانتشار المكتبات العامة والخاصة، وظهور عدد من المؤلفات لعلماء هذه المدن، وتنوع العلوم المتداولة من علوم نقلية وعقلية، شملت بمحتواها جميع العلوم المعروفة بتلك الفترة، وقد كان لمؤشرات هذه النهضة إفرات ونتائج ملموسة في الواقع تمثلت في ظهور عدد كبير من العلماء والفقهاء، حيث أتاح ذلك الازدهار الفكري لعلماء إقليم المغرب فرصة الحوار والمناظرة والتعمق في البحث والإقبال على دراسة المؤلفات لاسيما الفقهية منها، فساهموا في تطوير الحياة العلمية بالمنطقة، إذ شملت إسهاماتهم التدريس فكّونوا خلفائهم من العلماء والأئمة، وشاركوا في التأليف فتركوا تراثاً علمياً زاخراً يحمل طابع الاجتهاد والإبداع ويخص سائر المجالات حتى الرياضيات والفلك اللذان لم يحظيا قبل ذلك بكثير من التفات العلماء في بلاد المغرب الإسلامي، فكان من بين هؤلاء العلماء "أبو عبد الله المقرئ التلمساني" الذي كوّن تلامذة أعلاماً كان لهم الدور البارز في إتمام جهوده العلمية، وشارك علماء عصره في إثراء المكتبة الإسلامية من خلال تأليفه المتنوعة والتي لا تنحصر في تخصص معين، حيث وصفها حفيده بقوله: «التصانيف الشهيرة التي اقتادت المحاسن بزمام»²، وقد تم تحقيق بعض هذه المؤلفات، غير أنّ أغلبها يبقى في عداد التراث الضائع.

أولاً: التعريف بشخصية أبو عبد الله محمد المقرئ:

يعد الإمام "أبو عبد الله محمد المقرئ" علماً بارزاً من أعلام القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ببلاد المغرب الإسلامي عامة وتلمسان على وجه الخصوص، إذ لا يمكننا حصر مكانته العلمية في حيز مكاني ولا زمني، وذلك لعظم المنزلة التي تبوأها في حياته وبعد وفاته، وكفاه فخراً ما أبداه علماء عصره من تنويه بهذه المنزلة التي حظي بها، وما شهد به له المؤرخون والمترجمون الذين أرخو له، منها ما يتصل بشخصيته العلمية مثل الجدّية والحفظ والحرص على المزيد من الإطلاع، بالإضافة إلى الاجتهاد الفقهي في نطاق أصول المذهب المالكي، قال عنه: "أبو عبد الله بن مرزوق

¹ باحثة في التاريخ، بجامعة تلمسان، وأستاذة مؤقتة بجامعة سعيدة

² أحمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق سعيد أحمد أعراب- عبد السلام الهراس، ج1، مطبعة الفضالة، المحمدية، 1980م، ص5.

الجد: « كان صاحبناً المقري معلوم القدر، مشهور الذكر، ممن وصل إلى درجة الاجتهاد المذهبي، ودرجة التخير والتزييف بين الأقوال، وتبعه بعد موته من حسن الثناء وصالح الدعاء ما يرجى النفع به يوم اللقاء»¹، ووصفه "عبد الرحمن ابن خلدون" بأنه: «كبير العلماء بالمغرب»²، وقال عنه أيضاً: «استبحر في العلوم وتفنن»³، ويورد تلميذه "ابن الخطيب" شهادة لتبحره في العلم فيقول: «هذا الرجل مشارا إليه بالعدوة المغربية اجتهدا ودؤوبا وحفظا وعناية وإطلاعا، ونقلنا ونزاهة»⁴ ويقول أيضاً: «يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث ويتهجّر بحفظ الأخبار والتاريخ والآداب ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل و المنطق ويكتب ويشعر مصيبا في ذلك غرض الإجابة»⁵، ويشير أندلسي آخر بالجانب العلمي لدى "المقري" وهو "أبو الحسن النباهي المالقي" فيقول: « كان هذا الفقيه-رحمه الله- في غزارة الحفظ وكثرة مادة العلم، عبرة من العبر، وآية من آيات الله الكبر، قلما تقع مسألة إلا ويأتي بجميع ما للناس فيها من الأقوال، ويرجح ويعلل ويستدرك ويكمل»⁶، ويعتبره "الونشريسي": « أعلم أهل المغرب في زمانه»⁷.

ينتسب المقري إلى إحدى قرى الزاب⁸ بإفريقية تدعى "مقرة"، كما ينتسب إلى قبيلة قريش العربية التي خصّها الله تعالى بصورة في كتابه المبين، وهذا النسب صرح به جمهور من المؤرخين

¹ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتنى به عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص155، أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، 1968، ص 279.

² ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق وتعليق محمد بن تاوويت الطنجي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 247.

³ نفسه، ص 60.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، مكتبة خانجي، ط1، القاهرة، 1974م، ص ص 194-195.

⁵ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج5، ص 195.

⁶ النباهي، تاريخ قضاة الاندلس المسمى كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948، ص169.

⁷ الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 202.

⁸ الزاب: منطقة واسعة تقع جنوب غرب إفريقية، كانت في الأصل عبارة عن قرى عديدة، تعرف كل واحدة منها بالزاب، وإقليم الزاب يبتدئ غرباً من تخوم مسيلة ويحده شمالاً جبال مملكة بجاية، ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس وجنوباً إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط1-ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1975-1984م، ص ص 113-114.

والنسابين¹، وهناك من شكك في نسبه القرشي، إلا أنَّ "المقري الحفيد" تصدى لإثبات هذا النسب لأسرته، وساق من أجل ذلك مجموعة من النصوص².

كان مولده بتلمسان في عهد السلطان الزياني "أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن" أحد سلاطين تلمسان في أوائل القرن (8هـ/14م)³، وهذا بناء على ما ذكره "أبا عبد الله محمد المقري" نفسه في فهرسه⁴، فيرجح أنَّ تاريخ مولده كان في حدود سنة (710هـ/1310م)، استنادا على قول "المقري" نفسه الذي أشار إلى صغر سنه عندما أستاذته "أبو إسحاق بن حكم السلوى تـ737هـ/1337م) وهو وارد على تلمسان بعد سنة (720هـ/1320م)⁵.نشأ مترجمنا وسط أسرة تميزت بالعلم والمجد والثراء عندما احتضنته في طفولته وشبابه، الأمر الذي هيا له فرصة التفرغ لطلب العلم مبكرا، إذ نشأ منذ صغره محبا للعلم، وهذا ما نلمسه من خلال روايته بالمصافحة عن "أبي عثمان سعيد بن علي الخياط (تـ729هـ/1329م)⁶، فقال "صافحته وأنا صغير"⁷، مما يدل على إرادته وقوة عزمته واستعداده لطلب العلم، ولا شك أنَّ معاصرته لجهاذة العلم أمثال "ابن مرزوق الخطيب" (تـ781هـ/1379م) و"الشريف التلمساني (تـ771هـ/1369م) وغيرهم من علماء عصره، الأمر الذي جعله يحذو حذوهم في تحقيق المكاسب العلمية، مما خلق جوًّا من المنافسة العلمية وقد ساهم ذلك دون شك في تكوين شخصيته العلمية.

¹ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1996م، ص 382، التبتكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج تراجم المالكية، تعليق أبو يحيى عبد الله الكندي، دار ابن حزم، لبنان، 2002، ص 326.

² أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص204.

³ هو موسى الأول بن عثمان بن أبي سعيد بن يغمرا سن بن زيان أبو حمو، رابع سلاطين بني عبد الواد، ولد سنة (665هـ/1267م)، كان عضدا لأخيه السلطان أبي زيان في حربه وسلمه وخلفه بعد وفاته سنة (707هـ/1307م)، أخضع كثيرا من القبائل المجاورة له في الشمال والجنوب وصدَّ المرينيين عن التقدم من جهة الغرب، يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، الجزائر، 2007، ص ص 212-214.

⁴ سمي "نظم اللاتي في سلوك الأمالي"، أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 215، الكتاني، فهرس الفهارس، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيكات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج3، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982 ج3، ص 682.

⁵ محمد أبو الأجناف، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص 32.

⁶ هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، عرف بابن سبعين، متصوف ألبس الخرقه على طريق أبي العباس الرفاعي وطريق السيد أبي مدين، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 117.

⁷ أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 241.

ولمّا كانت تلمسان قبلة لطلاب العلم والعلماء على حد سواء، فقد كوّن ذلك فرصة "للمقرّي" في تحقيق طموحاته وأغراضه العلمية، وهذا ما عناه بقوله عن نشاطه في الدراسة والتحصيل: "فاستوعبت أهل البلد لقاءً وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاءً، سواء المقيم القاطن أو الوارد الضاغن"^{1 2}.

تتلمذ "المقرّي" على يد جلة من علماء تلمسان في زمانه، وقد أوردتهم في فهرسه "نظم اللالي في سلوك الأمالي" وأحصاهم "المقرّي الحفيد" صاحب "نفخ الطيب" منهم نحو 27 شيخاً³، ففي بداية تحصيله العلمي عكّف على مدارس القرآن وحفظه على الروايات السبع⁴، ثم تعلم قواعد اللغة العربية، فدرس كتاب "التسهيل"، ثم العلوم الدينية من فقه وأصول انطلاقاً من مختصر ابن الحاجب، فتتلمذ على يد "أبي موسى عمران المشدالي" الذي تعمق معه في الدراسات الفقهية، ثم استزاد دراسة مختلف العلوم النقلية والعقلية عن أجلة العلماء بتلمسان نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ "الآبلي" الذي نعتة بعالم الدنيا، و"أبو عبد الله محمد بن شاطر الجمحي" والذي نعتة هو الآخر بنادرتها، و قد روى عنه بعض الحكم الصوفية وشرح بعض أقواله⁵، كما لزم مجالس "ابني الإمام"⁶، وغيرهم كثير، فاستبحر بذلك في مختلف العلوم والفنون.

ومن أجل إتمام وإكمال علومه قام برحلة علمية إلى مختلف الحواضر الإسلامية قصد لقاء المشايخ، فاستفاد من خلالها من علوم مختلفة عن أعلام مذاهب متنوعة دون الاختصار على من يشاركونه المذهب الفقهي، فقد أخذ عن الإمام "أبو العباس بن رضى الدين الشافعي" و"شمس الدين بن

¹ ظَعْنٌ يَظَعْنُ و ظَعْنًا بالتحريك و ظَعُونًا، ذهب وسار، والظَعْنُ هو تجوّل من بلد إلى بلد، ويقال لكل شخص لسفر من مدينة إلى أخرى ظاعنٌ وهو ضد الخافض ويقال أظاعن أنت أم مقيم؟، ابن منظور، لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، 1990م، ص 2748.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص ص 193-194.

³ ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج2، ص ص 291-203، أحمد المقرّي، أزهار الرياض، ج5، ص ص 2-75، أبو عبد الله المقرّي، القواعد، تحقيق احمد بن عبد الله بن حميد، ج1، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، (ب ت)، ص 60.

⁴ الروايات السبع: إن القرآن الكريم رواه الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بضع ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتتنوّل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة، ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط1، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2005، ص 356.

⁵ أبو عبد الله المقرّي، الحقائق والرقائق، اعتنى به عمرو سيد شوكت، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب ت)، ص 162.

⁶ ابني الإمام: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت743هـ) وأخوه أبو موسى عيسى (ت749هـ) عالما المغرب في وقتهم، أصلهما من برشك، استقرا بتلمسان، فاختص بهما السلطان "أبي حمو موسى الأول"، وبني لهما المدرسة المعروفة باسمهما، وأقام يدرسان بها إلى أن استولى أبو الحسن على تلمسان فصحباه، أخذ عنهما الكثير من العلماء المشهورين، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ص 29-32.

القيم الجوزية" و"صدر الدين الغماري المالكي" وغيرهم، فكانت مصدر تكوين علمي له، مكنته وأهلته لتولي عدة مناصب سامية بحواضر المغرب الإسلامي، وكذا المساهمة في نشر الحركة العلمية بالمنطقة خاصة وأنه ظهر تفوقه في علوم مختلفة كاللغة والآداب العربية والأصول والجدل وقول الشعر والتصوف، كانت وفاته بفاس سنة (759هـ/1359م)، ثم نقل رفاته إلى تلمسان حيث ولادته ومقر أسلافه¹.

هذا، وقد اجتمعت عدة صفات لدى "المقري"، منها الورع والتقوى والخلق الكريم والتواضع والشجاعة في الإعلان عما يراه صواباً، ويتجلى ذلك من خلال ما رواه "أبو يحيى المطغري" بقوله: «أمر أبو عنان الفقيه المقري بإقراء التفسير بحضرة العلماء، فأبى وقال: "أبو عبد الله الشريف أحق به مني" فقال السلطان: "أنت تعلم علوم التفسير"، فقال "المقري": "الشريف أعلم بها مني، فلا يسعني الإقراء بحضرته" فعجبوا من إنصافه، ففسر الشريف بحضرة كافة العلماء، ونزل السلطان عن دست الملك، وجلس معهم على الحصر»². فمما لا شك فيه أن هذه الصفات الحميدة والخصال العلمية التي تميّز بها، بوأت له مكانة ارتقاء عدة وظائف سامية، سواء بتلمسان أو فاس وحتى غرناطة، كما أنه استحق منزلة من التقدير عند علماء فاس، لدرجة أن صنّف أحدهم مؤلفاً في ترجمة "المقري" أسماه "الزهر الباسم" جاء في صدره أبيات في مدح "المقري" منها:

إذا ذُكِرَتْ مَفَاخِرُ أَهْلِ فَاسٍ ذَكَّرْنَا مَنْ أَتَى مِنْ تِلْمَسَانَ
وَقُلْنَا هَلْ رَأَيْتُمْ فِي قُضَاةٍ شَبِيهًا لِلْفَقِيهِ الْعَدْلِ ثَانِي
وَنَفْسُ الْعِلْمِ إِنْ شَأْنَتْ لِشَخْصٍ فَمَا لِلْمَقْرِيِّ فِي الْعِلْمِ شَانِي³.

1. إسهاماته العلمية:

أ- إفادته العلم: كان التعليم أحد المهام التي قام بها "أبو عبد الله المقري" بحواضر المغرب الإسلامي، حيث انتصب للتدريس وتولى مهمة الإقراء و التبليغ مما أوتي من العلم، فدرّس بداية بتلمسان مسقط رأسه، وكان ذلك بعد عودته من الحج في حدود سنة (730هـ/1329م)، غير أنّ تدريسه بها كان عابراً إذ لم يشر من ترجموا له إلا بكلمة مدرس ومن ذلك "ابن فرحون" فقال: "أقرأ بها وانقطع إلى خدمة العلم"⁴، ثم تولى مهمة التدريس بحاضرة فاس التي رحل إليها صحبة السلطان المريني "أبي عنان" الذي قام ببناء له المدرسة المتوكلية، فكان من ألمع مدرسيها واشتهر بها⁵، وبعدما استقر بغرناطة أوائل جمادي الثانية

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 226، ابن مريم، البستان، ص 155.

² محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 146.

³ الونشريسي، المعيار، ج5، ص 340، أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 340.

⁴ ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 383.

⁵ عبد القادر زمامة، المقري الجد، مجلة دعوة الحق، العدد 2، السنة التاسعة، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ديسمبر 1965، ص 99.

سنة (756هـ/1355م)، انتصب للتدريس بجامع غرناطة، وألقي دروسا بمدرستها النصرية الشهيرة¹، فبرز من بين أكبر المدرسين بها لغزارة علمه وحسن أسلوبه وطريقة حواره في إيصال المعلومات إلى الطلبة، وبهذا تتلمذ على يده عدد وافر من العلماء الذين كان لهم دور كبير في خدمة العلم وإسهامات جليلة في العلوم الإسلامية كان من أبرزهم:

- لسان الدين بن الخطيب: الوزير والمؤرخ والأديب، ولد بمدينة لوشة سنة (713هـ/1313م)، تتلمذ على يد "ابن الفخار" و"الوادي أشي" و"القيجاطي" و"بن جزي" و"ابن الجياب"، و"ابن مرزوق الجد" و"في مؤلفه" الإحاطة"، تولى منصب كاتب، ثم وزير، فلقب بذي الوزارتين "الكتابة والوزارة"، له مشاركة في العديد من العلوم كالآداب والتاريخ والتراجم وغيرها، ومن أشهر مصنفاته "كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة" الذي أفرد فيه ترجمة خاصة "لأبو عبد الله المقرئ" توفي مقتولا بفاس سنة (776هـ/1374م)².
 - أبو عبد الله بن زمرك: وهو من مفاخر غرناطة، ولد سنة (733هـ/1332م)، أخذ عن مشايخها مثل "ابن الفخار" و"لسان الدين ابن الخطيب"، له نزعة صوفية، تولى الكتابة ثم الوزارة عند "ابن الأحمر" بعد "ابن الخطيب"، توفي بعد سنة (795هـ/1393م)³.
 - إبراهيم بن موسى الشاطبي: من أئمة المالكية بالأندلس، أخذ عن علماء غرناطة وعلماء المغرب ومنهم "ابن الفخار" و"أبي عبد الله البنلنسي" و"أبي القاسم الشريف السبتي" و"ابن لب" و"ابن مرزوق" وغيرهم، وأخذ عن "المقرئ" عند وفوده غرناطة، توفي بغرناطة عام (790هـ/1388م)⁴.
 - أبو عبد الله محمد بن علي بن علاق: من حفاظ غرناطة ومفتيها ومحدثيها وإمامها وقاضي الجماعة بها، أخذ عن "ابن لب" و"ابن مرزوق"، وأخذ عنه "المنتوري" و"ابن سراج" و"أبو بكر بن عاصم"، واستفاد من الشيخ "المقرئ" بغرناطة، له شرح على "مختصر ابن الفرعي"، وشرح على "قرائط ابن الشاط"، وله فتاوى نقل بعضها "الونشوسي" في كتاب "المعيار"، توفي سنة (806هـ/1403م)⁵.
- أبو عبد الله محمد بن سعيد بن لب بن بقي: من علماء غرناطة، روى عن "المقرئ" كل مؤلفاته، وقد ساق سندها بهذه الرواية بعض العلماء والأندلسيين والمغاربة في إثباتهم، أخذ عنه أعلام من أهل

¹ ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص 202.

² التنبكتي، نيل الابتهاج، ص ص 445-446، الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص 281.

³ التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 375، ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 300، ابن خلدون، التعريف، ص 247.

⁴ التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 48، الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص 199، المجاري، برنامج المجاري، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1982، ص 231.

⁵ المجاري، لمصدر السابق، ص 122.

الأندلس منهم "المنتوري" صهره و"أبو عبد الله المجاري"، كان مولده عام(722هـ/1322م) ووفاته سنة(791هـ/1388م)¹.

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي: المعروف بابن العباد، شيخ العلماء وإمام الصلحاء، أخذ عن والده "أبي الحسن الرندي" و"أبي عمران العبدوسي" و"الشريف التلمساني" والإمام "المقري"، حيث قال فيه "أحمد المقري" الحفيد: «إنه ممن يفتخر مولاي الجدّ رحمه الله تعالى بكون مثله تلميذاً له»²، ألّف "الرسائل الكبرى والصغرى"، توفي سنة(792هـ/1390م)³.

أبو عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي: البرنسي، الزموري الدار، شهر بأنقشابو، أخذ عن "أبي حيان" والقاضي "ابن عبد الرزاق الجزولي" و"المجاصي" والإمام "المقري" وغيرهم، له تأليف كشرح "ابن الحاجب الفرعي" سماه "معتمد الناجب في إيضاح منهمات ابن الحاجب"⁴.

أبو عبد الله القيجاطي: أحد مشاهير علماء غرناطة، أخذ عن علمائها منهم "ابن الفخار" و"أبي سعيد فرج بن لب" و"ابن مرزوق" و"المقري"، برز في علم القراءات حتى قال عنه "المقري الحفيد": «الأستاذ العلامة أبو عبد الله القيجاطي الآية في علم القراءات»⁵، توفي سنة (811هـ/1408م)⁶.

أبو زيد عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي: متبحر في سائر العلوم، رحل إلى المغرب والأندلس، والتقى بالقاضي "المقري" فأخذ عنه ونوّه به فقال: «كبير علماء المغرب»⁷، ترجم لنفسه ولسلفه في كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"، ولد بتونس سنة (732هـ/1331م)، وتوفي بالقاهرة سنة (808هـ/1405م)⁸.

الإنتاج الفكري للإمام المقري:

شارك "أبو عبد الله المقري" علماء عصره في إثراء المكتبة الإسلامية بتأليفه المتنوعة والتي لا تنحصر في تخصص معين، حيث وصفها حفيده بقوله "التصانيف الشهيرة التي اقتادت المحاسن بزمام"⁹، فقد ألّف في التوحيد والتفسير و أصوله والنحو و الأدب والمنطق والفقه، وقد تم تحقيق بعض هذه المؤلفات، غير أنّ أغلبها يبقى في عداد التراث الضائع، وسوف نصنفها كمايلي:

¹ التبتكتي، كفاية المحتاج، ص 460، الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص683.

² أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص341.

³ التبتكتي، نيل الابتهاج، ص 403، أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص341-342.

⁴ التبتكتي، نيل الابتهاج، ص457.

⁵ أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص340.

⁶ التبتكتي، نيل الابتهاج، ص282، المجاري، المصدر السابق، ص 92.

⁷ ابن خلدون، التعريف، ص 61.

⁸ المجاري، المصدر السابق، ص 150.

⁹ أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص5.

الفقه: لقد نبغ "أبو عبد الله محمد المقرئ" في علم الفقه، فهو يعد من أبرز العلماء الذين أنجبته المدرسة المالكية بتلمسان والمغرب خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فكانت له تصانيف عديدة في هذا الميدان أهمها:

• كتاب "القواعد": كان الفراغ من تأليف هذا الكتاب سنة (755هـ/1355م)¹، وهو يندرج ضمن القواعد الفقهية التي يعرفها "المقرئ" كما يلي: «ونعني بالقاعدة كل كلي هو أخص من الأصول وسائر المعاني العقلية العامة، وأعم من العقود، وجملة الضوابط الفقهية الخاصة...»²، فهو يشتمل على 1200 قاعدة، وقد بيّن "المقرئ" منهجه في كتابه هذا فقال: «قصدت إلى تمهيد ألف قاعدة ومائتي قاعدة، هي الأصول القريبة لأمّهات مسائل الخلاف المبتذلة والقريبة، رجوت أن يقتصر عليها من سمت به الهمة إلى طلب المباني وقصرت به أسباب الأصول عن الوصول إلى مكان النصوص من النصوص والمعاني، فلذلك شفعت كل قاعدة بما يشاكلها من المسائل وصفحت في جمهورها من الدلائل»³.

وما ينبغي التنويه إليه أنّ هذا الكتاب يعد من أكثر مؤلفات "المقرئ" قيمة في ميدان الفقه، إذ يظهر ذلك من خلال حرصه على التحرر من التعصب المذهبي رغم تفقهه في مذهب مالك ونشأته في بيئة غلب عليها انتشار هذا المذهب، ولم يكتفي بذلك فحسب بل وضع قواعد في ذم التعصب والتحذير منه، كما أنّه عمد إلى المقارنة بين فروع المذهب الأربعة، ومناقشة من سبقه في مقاصد الشريعة الإسلامية وقواعدها الفقهية وفروق أحكامها، وربط الفروع بقواعدها الشرعية، وعمل على بيان ما نشأ من الخلاف المذهبي في أصل هذه القواعد، إضافة إلى تأسيسه بعض القواعد، فلم يكن ناقلاً فقط بل عمد إلى إدخال قواعد جديدة بالاعتماد على الكتاب والسنة في الاستدلال.

وما زاد هذا الكتاب قيمة أنّه زوّده ببعض النصائح القيّمة الموجّه للعلماء وطلاب العلم خاصة والمسلمين عامة، فابتكر بذلك طريقة جديدة في خدمة الفقه، وهي خلاصة عمله النقدي لأقوال الفقهاء ونظرتهم إلى بعض المسائل، إذ كانت لـ "المقرئ" الكثير من المواقف الاجتهادية، وبذلك يكون "المقرئ" قد ترك موسوعة فقهية جامعة لعلم الفقه، فقد قال "الونشريسي" عن هذا الكتاب: «إنّه كتاب غزير العلم، كثير الفوائد، لم يسبق إلى مثله، بيد أنّه يفتقر إلى عالم فتاح»⁴، وقال عنه "المقرئ الحفيد": «وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة وهو قليل بهذه الديار المشرقية ولم أرى منه بمصر إلّا نسخة عند بعض الأصحاب» وذكر أنّها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر⁵، وقال عنه "محمد الفاضل ابن عاشور": «كتاب عجيب الاختراع، بعيد المنزع قصد فيه استخلاص المبادئ الكلية التي أقيمت على النظريات الفقهية في كل باب

¹ أبو عبد الله المقرئ، القواعد، ج1، ص 149.

² نفسه، ج1، ص 212.

³ نفسه، والصفحة نفسها.

⁴ التبتكتي، نيل الابتهاج، ص 427، أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج5، ص284.

⁵ ، أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج5، ص284.

من أبواب الفقه، وأثبت ما في تطبيق تلك المبادئ على جزئياتها من اختلاف الأنظار، ففان مقارنة حكيمة في نطاق القواعد بين فروع المذاهب الأربعة، وكان بذلك مبتكرا طريقة جديدة في خدمة الفقه»¹، وقد حظي هذا الكتاب باهتمام كبير من قبل العلماء.

• كتاب "عمل من طب لمن حب": فرغ "المقري" من تأليفه سنة (753هـ/1352م)، وأصل تسمية هذا الكتاب مثل عربي قديم، يقصد به عمل الطبيب الحاذق لشخص يحبه ويجلّه، وقد ذكر "المقري" سبب تأليفه هذا الكتاب فقال: « وكان الذي أثار عزمي إليه، وحمل همّي عليه أنّي رأيت محل ولدي بل خلاصتي وبقية من يعز على كبدي من قرابتي، الصغير سنا، الكبير إن شاء الله سناء المرجو من رب العزة أن يجعل منه السلف ذكرا جديدا وثناء، علي بن خالي ومحل والدي الشيخ الصالح، ذي النفس الزكية والعقل الراجح أبي عبد الله محمد بن عمر المقري ولع بكتاب (الشهاب)، وشرع يتكلم ببعض ألفاضه بين صبيان الكتاب، فخشيت أن لا يرجع عليه العناء بكبير فائدة»².

فقد كان هذا الكتاب من صنف التأليف للمبتدئين الذي تم فيه مراعاة تفاوت مستوى الطلبة الذين لم يتعمقوا في الدراسة والذين لم تسبق لهم دراية واسعة، إذ يتضح من خلال قول "المقري" أنه أراد أن يقوم بدور الطبيب الحاذق من أجل مداواة ومعالجة ابن خاله مما ألمّ به، وقد كان موضوعه فقهي أصولي محض جاءت مواضيعه متنوعة، وقد قسمه إلى عدة أقسام: القسم الأول: يشتمل على الأحاديث النبوية وهي نحو (500) حديث استنبط منها الأحكام المتعلقة بالأبواب والمسائل الفقهية المختلفة، أما القسم الثاني فهو قسم الكليات الفقهية جاء في غاية الإفادة، إذ يشتمل على (500) كلية ضابطة لمسائل الفقه في المذهب المالكي تتخللها مختلف الأبواب من العبادات والمعاملات والقضايا والشهادات والفرائض³، في حين كان القسم الثالث: قسم القواعد الحكمية، حيث يشتمل على قواعد فقهية وأخرى أصولية وعددها مائتين وهي أكثر شمولاً من الكليات السابقة، وكان القسم الرابع: في الألفاظ الحكمية المستعملة في الأحكام الشرعية، أورد "المقري" فيها بعض الأقوال المشهورة لأئمة المذاهب مثل قول "مالك": « لكل شيء وجه» وقول "أبو حنيفة": «إذا ضاق الأمر اتسع» وقول "الشافعي": « لكل مقام مقال»⁴، فهو عبارة عن مدخل للاصطلاحات الفقهية من الأقوال والحكم الماثورة عن طائفة من الأعلام.

¹ رشيد زواوي، التبادل العلمي بين المشرق و المغرب الإسلامي، مجلة الحضارة، العدد 1، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، 1414هـ/1993م، ص 328.

² أبو عبد الله المقري، عمل من طب لمن حب، تحقيق أبي الفضل ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 35.

³ محمد الشريف سيدي موسى، الحياة الفكرية ببجاية من القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر الهجري (13-16م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 2001، ص 108.

⁴ أبو عبد الله المقري، عمل من طب لمن حب، ص 158.

ويكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة، إذ لا يمكن للمتخصص في الفقه أن يستغني عنه، أثنى عليه "المقري الحفيد" بقوله: «إنّه بديع في بابهِ... فوق ما يوصف»¹، وقال عنه "أبو عبد الله المقري" في أبيات شعرية

هَذَا كِتَابٌ بَدِيعٌ فِي مَحَاسِنِهِ ضَمَنَتْهُ كُلُّ شَيْءٍ خِلْتُهُ حَسَنًا
فَكُلُّ مَا فِيهِ إِنْ مَرَّ اللَّيْبُ بِهِ وَلَمْ يَشْمَعْ عَيْبًا شَامَ مِنْهُ سَنَا
فَخُذْهُ وَاشْدُدْ بِهِ كَفَّ الضَّيْنِ وَدُدْ حَتَّى تُحَصِّلَهُ عَنْ جَفْنِكَ الْوَسَا².

وَألف "المقري" في الفقه أيضا مقالة "الطلقة المملكة" و "النظائر الفقهية" وحاشية بديعة على "مختصر ابن الحاجب الفقهي" قال عنها "المقري الحفيد": «فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها، وقد وقفت عليها بالمغرب»، وألف أيضا "تكميل التعقيب على صاحب التهذيب" وكتاب فقهي يشتمل على أكثر من مائة مسألة، قال عنها "ابن الخطيب": «ضمّنها كل أصيل من الرأي والمباحثة»³، وأكد "المقري الحفيد" أنّه غير القواعد سالف الذكر قائلا: «هو غير القواعد بلا مرية».

2. 1. التصوف:

ما ينبغي التنويه أنّ "المقري" مكانته في التصوف الذي ميّز عصره، حيث أشار "ابن الخطيب" إلى ذلك بقوله: «يتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ويعتني بالتدوين فيها»⁴، ف"أبو عبد الله المقري" في هذا الاتجاه كان ينطق بالحكمة ويوجه إلى طريق الخير والرشد ملتزما في ذلك بطريق الشرع، متقفا في أحكامه، ومرد ذلك تأثره بكثير من شيوخه، لاسيما شيخه "ابن شاطر"، الذي لم يخرج تصوفه عن طريق الدين، حيث نعت في ذلك بكونه: "غير مخل بشيء من الحقوق الشرعية"⁵، فقد أسهم "المقري" في هذا المجال بكتابات، كما كوّن تلاميذ في هذا المسلك الصوفي، أبرزهم "محمد بن عباد الرندي"، والإمام الشاطبي" الذي أخذ عنه بعض التقاليد الصوفية، أما عن مؤلفاته في هذا المجال فكان من أبرزها:

كتاب "الحقائق و الرقائق": الذي ظهرت فيه النزعة الصوفية الخالصة، لكنه أيضا توجيهي ورائع، قال عنه "أبو عبد الله المقري" في مقدمته: «هذا الكتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق، فهو زبدة التذكير و خلاصة المعرفة، وصفوة العلم ونقاوة العمل، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل، وعلى الله قصد السبيل»⁶، وقال عنه "الونشريسي": «لطيف الإشارة بديع المنزع وهو كثير

¹ أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 285.

² أبو عبد الله المقري، عمل من طب لمن حب، ص 158.

³ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 203.

⁴ نفسه، ج2، ص 195، ابن مريم، البستان، ص 155.

⁵ أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 272.

⁶ أبو عبد الله المقري، الحقائق والرقائق، ص 151، عبد القادر زمامة، الحقائق والرقائق، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة التاسعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ديسمبر 1965 ص 95.

بين أيدي الناس في تلمسان وفاس»¹، وقال "ابن عاشور" أيضا عن هذا الكتاب: « هو يتناول الجزيئات السلوكية ويرجع بها إلى النظر في سير التكوين، وذلك هو ما عنونه بالحقائق، و يأخذ المعاني التنبهية ويسبكها في قوالب حكيمة رائعة التفسير ويمزج التوجيه الوعظي بالأسرار التكوينية ولذلك رتب الكتاب حقيقة ورقيقة على التعاقب»²، ويذكر بعض المؤرخين أن فترة تدوين هذا الكتاب و ترتيبه كانت أثناء انعزال "المقري" وخلوته بالأندلس. ومهما يكن من أمر فإنّ هذا التأليف الأخير قد لقي محل اهتمام واسع من طرف الجمهور بالمغرب الإسلامي والأندلس ومن عامة الفقهاء المتصوفة الذين عمدوا إلى شرحه والتعليق عليه خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الموافق للرابع والخامس عشر الميلاديين، منهم الشيخ "أحمد زروق"³. وألّف "المقري" في التصوف أيضا "رحلة المتبتل" و"إقامة المريد" و"لمحة العارض لتكملة ألفية ابن الفارض" وهي منظومة شعرية تشتمل على مائة وسبعة وسبعين بيتا.

3.3. في مواضع مختلفة :

كتاب "المحاضرات" : وهو كتاب يشتمل على فوائد وحكايات وكلمات لبعض العلماء، إذ ضمّنه آداب المحاضرة ومجالس المناظرة، وتناول عقيدة التوحيد وهو يردّ على المتصوفة الذين يعتقدون أنّهم هم العارفون الواصلون القريبون من الله، قال عنه "المقري الحفيد": « وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين»⁴، وقد أورد نماذج مما جاء فيه عند ترجمته لجده منها: "دع ما يسبق للقلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره"، ومنه أيضا: "قيل لأديب: بم عرفت ربك ؟، قال: بنحلة في أحد طرفيها عسل وفي الآخر لسع، والعسل مقلوب اللّسع، وختم "أبو عبد الله المقري" هذا الكتاب بقوله: « فهذه جملة تراجم، وفيها مقنع لمن أراد المحاضرة، أو تنميق مجالس المناظرة، وكان الفراغ من جمعها في آخر يوم من شعبان المكرم من عام سبعة وخمسين و سبعمائة »⁵، ومنه نستنتج أنّ تأليف هذا الكتاب كان سنة (757هـ/1357م).

كتاب "التحف و الطرف": قال عنه "المقري الحفيد": « قد وقفت على بعضه، فرأيت العجب العجائب »، وقال عنه "الونشريسي": « غاية في الحسن والطرف »⁶، إضافة إلى ذلك كتاب "نظم الآلي في سلوك الأمالي" وهو كتاب في أدب الرحلة، فهو عبارة عن برنامج لـ"المقري" ترجم فيه لشيوخته ودوّن فيه رحلته،

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 203.

² أبو الأجفان، المرجع السابق، ص 109.

³ أحمد زروق: من كبار شيوخ الفقه والحديث والتصوف، ذاع صيته في بلاد المغرب والمشرق، توفي بمسراته شرق طرابلس الغرب سنة(899هـ/1493م)، ابن مريم، البستان، ص ص 45-47، ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص203، أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص 310.

⁴ أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص ص285.

⁵ نفسه، ج5، ص ص 309-310.

⁶ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 427، أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص ص285.

وقد لخصه حفيده "أحمد المقرئ" في كتابيه "نفخ الطيب" و"أزهار الرياض" وللشيخ "عبد الحي الكتاني" في كتابه "فهرس الفهارس" ملخص لـ "المقرئ" عن كتابه يرويه عنه¹.

وألّف "المقرئ" أيضا كتاب "المحرك لدعاوي الشر من أبي عنان"، وله كتاب "اختصار المحصل" في الأصول وله "شرح لغة قصائد المغربي الخطيب" و"شرح التسهيل" في اللغة والنحو وله "الجامع لأحكام القرآن" والمبين لما تضمنه من معاني السنة وآي القرآن "في التفسير"².

ويرى الأستاذ "ابن عاشور" أنّ تصنيف "المقرئ" لهذه الكتب كان في المرحلة الأخيرة من حياته حيث يقول: « في هذه الحقبة التي بين خروج المقرئ من تلمسان حيا سنة (1349هـ/1749م) ورجوعه إليها ميتا سنة (1359هـ/1759م)، كان إنتاج "المقرئ" وأثاره النافعة الذائعة التي كانت للعقل الإسلامي تراثا زكيا منتقلا في القرون، فقد تخرج عليه في تلك الفترة الأعلام الذين تفرغت اختصاصاتهم عن مشاركته وتقننه... وكانت تأليفه العظيمة قد صدرت كذلك في تلك العشر السنين التي بين خروجه من تلمسان ووفاته»³. إلى جانب هذه المؤلفات، كانت للإمام "المقرئ" مشاركات شعرية طريفة في مختلف الموضوعات أغلبها يتضمن حكما وينم عن اتجاهه الصوفي، كما ساهم في حركة الإصلاح ضد بعض التيارات المنحرفة التي ظهرت في مجتمع المغرب الإسلامي فعمل على تجنب المجتمع من الوقوع فيها.

خاتمة:

يظهر جليا مما سبق مشاركة "أبو عبد الله محمد المقرئ" في دفع الحركة العلمية بتلمسان وحواضر المغرب الإسلامي، إذ تتضح هذه المشاركة من خلال التدريس فلم يبخل بنشر علمه وثقافته على طلاب العلم الذين ازدحمتم بهم حلقات درسه في الفترة التي انتصب بها مدرسا نظرا لسعة إطلاعه وكثرة حفظه وعمق أرائه، كما ظهرت مشاركته من خلال إثرائه للمكتبة الإسلامية بمصنفات هامة في شتى أنواع العلم خاصة الفقه الذي ضرب فيه بسهم وافر متجاوزا حدود مذهبه المالكي ووصل بعلمه إلى مستوى تقعيد القواعد الفقهية والربط بالقواعد الشرعية، فكان بذلك جديرا بأن يطلق عليه "إمام فن القواعد"، وهو ما يؤكد عظمة شخصية "أبو عبد الله المقرئ" ويشهد له بأنه من أبرز العلماء الذين أنجبهم المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص في القرن الثامن الهجري، فقد كان مجتهدا أصيلا وفقها متقنا ومفتيا بارعا وقاضيا عادلا، ووصل بعلمه إلى درجة التقعيد والتأصيل والتخيير بين الأقوال والترجيح بين الآراء، كما كان له جليل الأثر في إرساء دعائم النهضة العلمية وإقرار المذهب المالكي بحواضر المغرب الإسلامي من خلال تلامذته ومؤلفاته وأرائه الإصلاحية.

¹ الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص 682.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 203.

³ أبو الأجفان، المرجع السابق، ص 118.